في سبيل الله

قيس بن سعد

رضي الله عنه

كثيرا ما تدعوك نفسك إلى فعل الحرام

اتركه في سبيل الله

«أؤكد لك يا سعد.. لو استطعنا أن نشتري لهذا الفتى الذهبي لحية بأموالنا لفعلنا !».

نطق بها أحد الأنصار وهو يداعب سعد بن عبادة ، في جلسة جمعته مع بعض أصدقائه في منزله، وكان يجلس معهم ولده قيس يعلق على أحاديثهم ويشترك معهم في بعض أطرافه..

وكان الولد يلفت نظر الجالسين بشدة، ويثير إعجابهم بذكائه في الرد، وشخصيته القيادية المبهرة والتي ورثها عن أبيه سعد بن عبادة زعيم الخزرج..

كان الفتى مبهرا بحق..فهو بالإضافة إلى مهارات القيادة النادرة والخبرة الاجتماعية الكبيرة، التى اكتسبها نتيجة لوفود شخصيات المدينة على اختلافها لمنزل أبيه، فلقد كان يتمتع بدهاء غير مسبوق.. ومكر وخديعة، جعلت كل من حوله يحذره، ويحسب خطواته معه جيدا..

إلا أن شيئا واحدا كان ينقصه، وبعدها يكتمل مظهر زعامته الجذابة، فيصبح زعيما مظهرا وجوهرا..

إنها اللحية..

نعم.. اللحية فقط..

فلم ينبت لـ « قيس» شعر في وجهه، وهوأحد مظاهر رجولة العرب..

ولم يكن عرض أصدقاء سعد المال من أجل شراء لحية لابنه إن أمكن، لأن سعدا لا ينقصه المال، فلقد كانت طرفة فحسب، ولقد كان سعد بن عبادة من أغنى أغنياء المدينة، بل ومن أجود أهلها..

فلم يرث قيس الزعامة عن أبيه فقط.. بل ورث الكرم أيضا..

كان الكرم هوأحدى العلامات المميزة لأسرته، حتى إنه في النهار كان يصعد مناد فوق المنزل، فينادي على من يريد أن يأكل، وفي الليل، يوقدون النار ليسترشد بها الغريب أثناء سيره..

وأصبح كرم قيس بن سعد، مثار حديث الصحابة، حتى إن عمر وأبا بكر كانا يتناولانه في أحاديثهما بتعليقات لا تخلو من طرافة، فقالا فيه يوما:

- لو تركنا هذا الفتى لسخائه، لأهلك مال أبيه.

وعندما سمع سعد بما قال أبو بكر وعمر.. قال غاضبا:

- من يعذرني من أبي قحافة وابن الخطاب؟ يبخلان علي ابني.

أي من يحميني من أبي بكر وعمر.. فإنهما يدعوان ابني للبخل..

ورغم اعتراض أبي بكر وعمر على هذا الكرم الذي تخطى الحدود من وجهة نظرهما، إلا أن قيسا استمر على عهده، أو هوايته المفضلة..

ففي يوم من الأيام طلب منه أحد إخوانه قرضا من المال، فاستجاب قيس على الفور، وحدد له الأخ المدين موعدا لسداد الدين، واتفقا عليه..

ووفى الأخ المدين بوعده، حيث جاء في الموعد المحدد ليسد دينه، ويعطي قيسا ماله، إلا أنه فوجئ بقيس يرفض قائلا:

- إنا لا نعود في شيء أعطيناه!

إن صفة الكرم قد تغلغلت في جسد قيس وعائلته، حتى أصبحت شيئا من تكوينهم، وربما تحولت إلى جينات وراثية، يولد الأبناء بها بفطرتهم دونما عناء!

وكان أبوه سعد يرى أن ما ينقص هذا الفتى لتتبلور شخصيته وتنقى من خبثها، ثم تصقل وتلمع كجوهرة نادرة، يشهد بقيمتها وبجمالها كل من رآها..

الإسلام...

إنه يعلم أن الإسلام يهذب القدرات، وينقحها وينميها ويوجهها إلى كل نافع ومفيد..

إنه يعلم أن الإسلام دين يستفز المواهب، فيجعلها تنطلق بقوة في فضاء واسع بلا حدود، دون أن تشذ عن ضوابط قيمه وأخلاقه..

إنه يعلم أن الإسلام، دين يستطيع برفق، أن يحول مؤشر الذكاء والدهاء لدى قيس إلى اتجاه العدل والحق والنفع...

ولم لا ؟ وأمامه نموذج حي من المهاجرين يتحرك أمامه كل يوم اسمه عمر بن الخطاب.

كل هذا جعل سعدا يأخذ ابنه قيس ليذهب به إلى رسول الله ﷺ.. قائلا:

- هذا خادمك يا رسول الله.

ويسلم قيس، ليسعد به أيما سعادة، ويبدأ قيس رحلته مع الإسلام والمسلمين.

الآن أصبح قيس مسلما، يصاحب المسلمين ويشترك معهم في ندواتهم.. يتناقش معهم في أفكارهم ويساعدهم في أعمالهم..

وكان من السهل أن يتأكد الرسول ﷺ من ذكاء الفتى ومواهبه، والتي تجعله يضمه في عداد المتفوقين والمميزين من صحابته..

وهوأيضا لم يكن ليفارق الرسول ﷺ، فهو يلازمه أينما راح، حتى أصبح بمثابة الحارس له، وأصبح حاملا لراية الأنصار في بعض الغزوات، ومنها فتح مكة، بعد أن أخذ الرسول ﷺ الراية من أبيه سعد ليعطيها له [1]، وعينه النبي ﷺ رئيسا للجنة الصدقات، يجمع الصدقات ويوزعها على

(١) كان للنبي ﷺ في كل حرب رايتان: راية للمهاجرين مع على بن أبي طالب، وراية للأنصار مع سعد بن عبادة، فلما كان يوم فتح مكة مر سعد ومعه الراية وقال: «اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل المحرمة، اليوم أذل الله=

من يحتاجها.

لقد أصبح قيس جامعا لصفتين متلازمتين..الكرم والشجاعة. فلم تكن تأتي غزوة اشترك فيها النبي ﷺ حتى اشترك معه فيها ، مما أكسبه صفات جديدة، ومهارات عسكرية، نتيجة لاشتراكه المستمر في الحروب، بما أهله للقيادة والإمارة في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه..

وفي عهد علي.. كان شاهدا للفتنة الكبرى بينه وبين معاوية..

قضية أصابته بالحيرة الشديدة، كما أصابت الألوف غيره من خيرة الصحابة، ولكنه فكر طويلا بكل ما أوتي من حكمة وقوة عقل، وانتهى به الأمر ليقف في صف الخليفة على بن أبي طالب، وفي موقعة صفين الشهيرة [1]، أراد أن يحتال بذكائه ليتفوق على معاوية ، وأراد الشيطان أن يجعله يفكر في استخدام دهائه إلى أبعد مدى، حتى لو تعدى خطوط المسموح به.. ولقد هم بالشر لولا أن تذكر الله والإسلام ورسالة الحق التي جاء بها.. فتراجع مستغفرا وهو يتمتم:

– والله لئن قدر لمعاوية أن يغلبنا، فلن يغلبنا بذكائه، بل بورعنا وتقوانا.

إنها شجاعة من نوع آخر غير شجاعة النفس، ربما يفتقدها الغالبية العظمى من السياسيين والعسكريين في عالمنا الآن، شجاعة مواجهة النفس، شجاعة الدفاع عن الحق وإن كان على حسابك.

في السياسة والحرب.. ربما تتاح الفرصة تلوالفرصة للمكاسب، ولكنها غالبا ما تكون على أنقاض البشر...

يكسب القائد ويخسر الناس، وتداس الأخلاق، وتنحر القيم، ويجنب الحق..

باسم السياسة..

إنها شجاعة نفسية لا يصنعها إلا الإسلام، ولا يقوى عليها إلا من التزم بالتقوى والخوف من الله..

إنها شجاعة من أجل رضا الله، فلن يرضى الله بنصر قائم على الظلم وهدم القيم..

إنها شجاعة.. لله.

وظل قيس على مبدئه، حتى عندما أحدث معاوية الخلاف بينه وبين علي بن أبي طالب..

فلقد ولى على «قيسا» حاكما على مصر..فانزعج معاوية انزعاجا شديدا، وشعر أن المسألة قد زادت تعقيدا، فحتى لو انتصر معاوية في الحرب، فسيصبح إسقاط قيس من على حكم مصر مسألة

=قريشا»، فقال النبى ﷺ لما بلغته قولة سعد: «لا.. اليوم يوم المرحمة، اليوم أعز الله قريشا»، وأخذ النبي ﷺ اللواء من سعد، وأعطاه لابنه قيس.

(١) وقعت بين جيش علي بن أبي طالب وجيش معاوية بن أبي سفيان في عام ٣٧ هجرية في أحداث الفتنة الكبرى، بعد رفض معاوية قرار علي بن أبي طالب بعزله.

صعبة غير مضمونة، ولقد كانت مصر تمثل لمعاوية درة التاج..

ونجحت خطة معاوية..وعزل علي قيسا..

وفطن قيس للأمر..وكان رده غاية في الحكمة وغاية في الذكاء..

كان معاوية ينتظر ثورة من قيس على (علي بن أبي طالب)، وانشقاقا في جبهته، مما يحسم الأمر لمعاوية..

فما ثار قيس على (علي بن أبي طالب)، ولا أحدث انشقاقا في جبهته، بل ذهب لعلي وأعلن ولاءه التام له..

كان معاوية يدرك دهاء قيس، ولكنه لم يكن يعلم أنه وصل به إلى هذا الحد..

ولم لا؟! ولقد علم الإسلام قيسا، أنه ما تقلد منصبا إلا لله..لا لجاه ولا لشهوة، فإن تركه، فلن يعنيه ذلك في كثير أو قليل.

شجاعة قيم ومبادئ وأصول، لا تحكم بها لشخص، إلا بمثل هذه المواقف..

واستشهد علي.. فبايع قيس (الحسن)، ابنه الذي رآه الأنسب للخلافة بعد علي. ولكن الحسن لم يتحمل تلك الدماء التى يجدها تسيل كل يوم من خيرة البشر، من أجل حكم بشري زائل، فآثر السلامة، وأوقف القتال، وفاوض معاوية وبايعه..

ويصدم قيس بعض الشيء من موقف الحسن، وقد كان على رأس جيش من خمسة آلاف مقاتل، حلقوا رؤوسهم حدادا على موت علي..

لكن شجاعة الحق، تتجلى مرة أخرى..

لا انفراد برأي.. ولتحكم الشورى الموقف، فخير جنوده بين الاستمرار في القتال أو وقفه، فاختاروا ما اختار الحسن، فنزل على رأيهم.

وفي المدينة المنورة، عام تسعة وخمسين، مات الداهية الذي روض الإسلام دهاءه.. مات الرجل الذي كان يملك الشر، فما أوقفه عنه، إلا مقولة رسول الله ﷺ: « المكر والخديعة في النار».

* * *

دروس وتحليل

١- مجالسة الصغار للكبار.. ينمى فيهم الرجولة، ويكسبهم خبرات اجتماعية مطلوبة (اعتياد سعد بن عبادة أن يجلس ابنه قيس في مجالس الكبار).

أحد عيوب التربية في مجتمعاتنا العربية والإسلامية، هو تجنيب الصغار لمجالس الكبار، بل واعتبار ذلك عيبا، وهوأمر يجعل الصغير فاقدا للجرأة المطلوبة عند مواجهة الكبار، كما أنه يفقده الكثير من الخبرات الاجتماعية التى كان يستطيع تعلمها، لوأتيحت له فرصة الجلوس في مجالسهم، كما أنه سينمو عقله بسرعة أكبر مما لو لم يسمح له بذلك، وكان لجلوس سعد بن عبادة في هذه المجالس، أثره الكبير في شخصيته، فلقد أصبح على دراية بشخصيات مرموقة في بلاده، واكتسب خبرة التعامل معهم، وتفاعل هذا مع مواهبه، فأصبح شخصية قيادية تثير الإعجاب والفخر.

٢- الكرم يعلم الإيثار ويورث العزة ويجلب الحب (شهرة قيس بن سعد بالكرم الشديد).

الكرم هو إحدى العادات الحميدة التى تميز بها العرب في المجتمع الجاهلى، وهى عادة تميز بها الفقير والغنى، فالكرم ليس حكرا على الأغنياء فقط كما يظن البعض، فالعديد من الفقراء في حياتنا نجدهم كرماء، يستقبلون ضيفهم ببسمة مشرقة، ويقدمون لهم ما كان في مقدورهم، وهى عادة تعلم الإيثار وتورث العزة في النفس وتجلب المحبة لصاحبها، وهى صفة ندرت في مجتمعاتنا، رغم الفارق الرهيب في الإمكانات المادية بين عصرنا وبين العصر الجاهلي.

٣- الإسلام لا ينمى المواهب والقدرات فقط، ولكنه يهذبها ويوجهها في الاتجاه الصحيح (قيس بن سعد يتراجع عن تنفيذ حيلة في حرب علي بن أبي طالب ضد معاوية في معركة صفين؛ لأنه يجد فيها ميلا للشر).

لم يخلق الله إنسانا إلا ولديه موهبة، أو قدرة أعطاها الله له ليسخرها في خدمة الناس وإرضاء الله، ولكن الكثير منا يسيء استخدام قدراته، مثل القوة أوالقيادة أوالذكاء أواللباقة في الحديث أو موهبة كالغناء أوالتمثيل، فيوجهها توجيها شخصيا، هدفه حصد المكاسب المادية وجلب الشهرة لنفسه دون اعتبار لقيم أو دين، أو لغرض إثبات الوجود بين الأصدقاء دون تحر للحلال والحرام.

إن الإسلام يعلم المسلم التقوى، فينمى فيه الخوف من الله، فإذا استغل قدراته أو مواهبه، فكر مليا قبل استخدامها، هل موجهة لإرضاء الله أم لمعصيته ؟، هكذا تستثمر المواهب في بناء الأمم ورقى الإنسان ونهضة المجتمع. واستغلال الهواية بصورة لا تعرف إلا المصلحة الشخصية، طريقة تدمر المجتمع، وتجلب الفساد، وتصيب بالتخلف.

٤- ليست الشجاعة فقط أن تواجه غيرك، ولكن الشجاعة أيضا أن تواجه نفسك (قيس بن سعد يفكر في الحيلة التي كان يدبرها تجاه معاوية، ويراجع نفسه ويتنازل عنها لاعتقاده بخطئها من الناحية الشرعية).

مواجهة النفس بأخطائها ومحاولة تقويمها أمر في غاية الصعوبة ، ويحتاج إلى تدريب يومى مستمر، لكبح جماحها والتعامل مع نزواتها، وربما يكون الشخص شجاعا ويعرف بجرأته في المواقف الصعبة وتحدي الأقوياء، ولكنه أضعف الضعفاء مع نفسه، فلا يستطيع إلا الإصغاء لها والاستسلام لأوامرها، وقيس بن سعد جمع بين الشجاعتين، ولولا شجاعته مع نفسه، لكان قد أقدم على حيل شتى كفيلة أن تكسبه الحرب مع معاوية، ولكن تقواه وخوفه من الله، جعلاه يتراجع ويستغفر الله، لأنه يعلم أنها حيل غير شرعية تغضب الله. لقد أغرته نفسه بالانتصار والزهوأمام نفسه والآخرين، ولكن صرامته مع نفسه مكنته من كبح جماحها وإلجامها من أجل مرضاة الله.. والله وحده.

* * *